الفصل الثّالث

نماذج من :

التّرادف في الأفعال

الترادف في الأفعال:

كما وقع الترادف بين الأسماء، فقد وقع أيضاً في الأفعال.

ومن صور الترادف في الأفعال في القرآن الكريم ما يلي:

جاء ـ أتى:

أ ـ جاء:

لم ترد في القرآن الكريم إلاّ فعلاً ماضياً فقط، و لم يرد منها مشتقّ في القرآن الكريم كلّه.

وتنوّع هذا الفعل بالنسبة للضمائر الملحقة به، ولتاء التأنيث فقد وردت: جاء ـ جاءت ـ جاءتك ـ جاءته ـ جاءتنا ـ جاءتهم ـ جاءكم ـ جاءنا ـ جاءهم ـ جاؤوا ـ جاؤوكم ـ جاؤوها ـ جئتَ ـ جئتِ ـ جئتُك ـ جئتكُم ـ جئتم ـ جئتمونا ـ جئتهم ـ جئنا ـ جئناك ـ جئناهم.

وجاءت مرة واحدة مبنية للمفعول في قوله تعالى:

﴿وجيءَ بالنّبيّين والشُّهداء﴾(١).

وجاءت كذلك مرة واحدة مقرونة بالهمزة في أولها في قوله تعالى:

﴿فأجَاءَها المخاض﴾(٢).

من الوجهة اللغوية:

جاء بمعنى: أتى، قال اللسان: «جَيَأ»: المجيء: الإتيان، وجاء يجيء جَيْئةً، وهو بناء المرّة الواحدة إلاّ أنه وضع موضع المصدر مثل: الرّحْفة، والرّحمة.

والاسم: الجِيْئَة.

وأجاءه إلى الشيء جاء به، وألجأه، واضطرّه إليه.

قال زهير:

وجارٍ سار مُعْتمداً إليكمْ ... أجَاءَتْه المخافةُ والرّجاءُ(٣)

---

(١) الزُّمَر:٦٩.

(٢) مريم:٢٣.

(٣) ديوان زهير:١٣.

قال الفراء: أصله من جئت، وقد جعلته العرب إلجاءً.

وفي المثل:«شرٌّ ما أجاءَك إلى مُخّة عُرقوبٍ»(١).

قال الأصمعي: وذلك أن العرقوب لامخّ فيه، وإنما يحوج إليه من لا يقدر على شيء.

وجاء بمعنى صار، ومنه قولهم:«ما جاءت حاجتك»(٢) أي ما صارت... وإنما صُيِّر جاء بمنزلة كان في هذا الحرف لأنه بمنزلة المثل، كما جعلوا «عسى» بمنزلة «كان» في قولهم: «عسى الْغويْرُ أبْؤساً»(٣).

ومن جاء جاءت كلمة: مُجيّاً، والمُجيّأ كما قال ابن السّكّيت: امرأة مُجيّأة: إذا أُفْضيتْ، فإذا جومعت أحدثت.

ورجلٌ مُجَيّاً: إذا جامع سلح.

وبين الفراء سر الهمزة في قوله تعالى: ﴿فأجَاءَها المخاضُ إلى جِذْعِ النّخلة﴾(٤) فقال: هو من «جئت» كما تقول: فجاء بها المخاض، فلما أُلقيتْ الباء جُعِل في الفعل ألف كما تقول: أتيتك زيداً تريد بزيد(٥).

ب ـ أتى:

تكرّرت في القرآن الكريم كثيراً، وشغلت مادتها صفحات متعدّدة من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، من الصفحة الرابعة إلى الصفحة الحادية عشرة، ومعظم ما ورد من مادتها كان أفعالاً موزّعة بين الماضي والمضارع والأمر والتذكير والتأنيث، وإلحاق الضمائر، والبناء للمعلوم والمفعول، وممّا نلحظه أن صيغ الأسماء

---

(١) انظر كتاب الأمثال لأبي عبيد: ٣١٢ قال: وذلك أن العرقوب لامخ فيه، فليس يحتاج إليه إلا من لا يقدر على شيء، قال أبو عبيد: قد يضرب هذا المثل لكل مضطر إلى ما لاخير فيه.

(٢) يجوز في «حاجتك» الرفع والنصب، انظر ذلك في همع الهوامع٢/٧٠ بتحقيقي.

(٣) انظر «فصل المقال»:٤٢٤، قال الأصمعيّ: أصل هذا أنه كان غار فيه ناس، فانهار عليهم، وأتاهم فيه عدو فقتلوهم، فصار مثلاً لكل شيء يخاف أن يأتي منه شر، ثم صغر الغار، فقيل: غوير.

(٤) مريم: ٢٣.

(٥) اللسان: «جيأ».

من هذه المادة قليلة جداً بالنسبة لصيغ الأفعال.

فقد ورد من أسماء الفاعلين: لـ «آت» ، «آتية»: مؤتون، ومن المصدر: إيتاءً، ومن اسم المفعول: «مأتيّا»(١).

أتى من الوجهة اللغوية:

في اللسان: أتى: الإتيان: المجيء، أتيتُه أتْياً، وأُتِياً، وإتياً، وإتياناً: جئته، قال الشاعر:

فاخْتَل لنفسك قَبْل أتْي العَسْكر(٢)

وأتى بمعنى كان، وفي التنزيل العزيز:

﴿ولا يُفلح السَّاحرُ حَيْثُ أتَى﴾(٣)، قالوا معناه: حيث كان.

وأتى بمعنى رجع، ومنه قوله تعالى:﴿أيْنما تكونوا يَأتِ بِكُمُ اللهُ جَميعاً﴾(٤).

قال أبو إسحاق: معناه يرجعكم إلى نفسه.

وأتى بمعنى ذهب، يقال: يُؤتى دونه، أي يذهب به، ويغلب عليه، قال:

سَى دُونَ حُلْوِ العَيشِ حَتى أمَرَّهُ سُوبٌ على آثارهنّ نُكُوبُ(٥)

أي ذهب بحلو العيش.

وأتى بمعنى أنذر، قالوا: «قَدْ أُتيتَ يا فلان»: إذا أُنذِر عدواً، أشرف عليه.

أتى بمعنى فَعل، يقال: أتى الأمر والذّنب: فعله.

آتى بمعنى أعطى، وقد قرئ:﴿وإنْ كان مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أتَيْنا بِها﴾(٦) و«آتينا بها»، فـ«أتينا»: جئنا، و«آتينا»أعطينا، وقيل: جازينا.

آتى بمعنى وافق، يقال: آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة: إذا وافقته وطاوعته.

تأتّي: ترفّق. قال الأصمعيّ: «تأتّى فلان لحاجته: إذا ترفّق لها وأتاها من

---

(١) انظر المعجم المفهرس: ١١.

(٢) من شواهد اللسان: «أتى» .

(٣) طه: ٦٩.

(٤) البقرة: ١٤٨.

(٥) من شواهد اللسان: «أتى» .

(٦) الأنبياء:٤٧.

وجهها»[1].

وفي ضوء الأمثلة التي سقتها في هاتين المادتين:«جاء ـ أتى» نستطيع أن نقول: إنّ بينهما التقاءً في بعض المعاني، وافتراقاً في البعض الآخر، فإذا كان السّياق يقتضي أن يكون أحدهما مثل الآخر في المعنى، قلنا: إنهما مترادفان في هذا المعنى، أما إذا كان السّياق يقتضي التفرقة بينهما قلنا: إنهما في هذه الحالة غير مترادفين.

* * *

(١) اللسان:«أتى».

أرسل . بعث:

أ . أرسل:

مادة أرسل استوعبت ثماني صفحات من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وقد أخذت مادة:«أرسل» مساحة واسعة من هذا المعجم.

وتعدّدت صيغ هذا الفعل: فمنها الماضي المسند إلى الضمائر: أرسلتُ ـ أرسلتَ ـ أرسلنا ـ الخ، ومنها المضارع: يرسل ـ نرسل، ومنها، الأمر: أرْسِلْ ـ أرْسِلْنا، ومنها المبني للمفعول: أُرْسِلوا.

ووردت الأسماء بصيغ متعدّدة مفردة وجمعاً مضافة إلى الضمائر. فمن الأسماء المفردة: رسول ـ رسولنا، ومن الجمع: رسُله، ورسُلُنا، ورسلُهم الخ.

أرسل من الوجهة اللغويّة:

أرسل بمعنى: وجّه، والإرسال:التّوجيه.

ويتعدى بـ«إلى» فيقال: أرسلت إليه.

والاسم: الرِّسالة، والرَّسالة، والرّسول، والرّسيل، والأخيرة عن ثعلب، وأنشد:

لقد كذب الواشون ما بُحت عِندهم بلَيْلي ولا أرسلْتُهم برسيل(١)

والرسول بمعنى الرسالة يذكّر ويؤنث.

وفي التنزيل العزيز: ﴿إنّا رسولُ رَبّ العالمين﴾(٢)، ولم يقل: رُسُل، لأن فَعولاً وفَعِيلاً يَسْتوي فيهما المُذَكّر والمؤنث، والواحد والجمع...

وجمع رسول: أرْسُل، ورُسُل، ورُسْل، ورُسُلاء.

وسمي الرسُول: رسولاً، لأنه ذو رسول، أي ذو رسالة، ويقال: أرسلت فلاناً

---

(١) من شواهد اللسان: «رسل» والشاهد نفسه رواه اللسان برواية: «رسول»

لقد كذب الواشون ما بُحْتُ عندهم بسِرٍّ ولا أرسلتهم برسول

ونسبه إلى كثيّر.

وفي ديوان كثير /٢٥٤ "ولا أرسلتهم برسيل" وليست: «برسول» كما في اللسان.

(٢) الشعراء:١٦.

في رسالة، فهو مُرْسَل، ورَسُول.

أرسل بمعنى أطلق: يقال: أرسل الشيء: أطلقه.

وأرسل: سلّط، ومنه قوله عز وجلّ: ﴿ألم تر أنا أرْسَلْنا الشّياطِين على الكافرين تَؤُزُّهُم أزّاً﴾(١).

والوجه المختار عند الزجّاج أنهم أُرسلوا عليهم، وقُيّضوا لهم بكفرهم، كما قال تعالى:﴿وَمَن يَعْشُ عن ذِكْر الرّحمن نُقيِّضْ له شيطاناً﴾(٢).

ومعنى الإرسال هنا: التسليط(٣).

بعث:

مادة بعث في القرآن الكريم أقلّ بكثير من مادة «أرسل» والناظر إليها في «المعجم المفهرس» يجد أنها استوعبت صفحة تقريباً، وقد جاءت فعلاً ماضياً في عدة آيات أسندت إليه معظم الضمائر، أيضاً ومن الماضي جاءت صيغة واحدة على وزن انفعل في سورة الشّمس: ﴿إذ انْبَعَث أشقاها﴾(٤).

و لم تكرر هذه الصيغة على حين تكررت صيغ الماضي، والمضارع، والأمر.

وجاءت اسماً بلفظ: «البعث ـ مَبعوثون».

بعث من الوجهة اللغويّة:

في اللسان: بعثَه يَبعَثُهُ بَعْثاً: أرسله وحده، وبعث به أرسله مع غيره.

وابتعثه أيضاً: أرسله فانبعث.

ب ـ معاني بعث:

بعث: ثار ومضى ذاهباً لقضاء حاجته يقال: انبعث فلان لشأنه.

---

(١) مريم:٨٣.

(٢) الزخرف: ٣٦.

(٣) اللسان:«رسل».

(٤) الشمس:١٢.

البَعْث: الرسول، والجمع: بُعثان.

والبَعْث: بعث الجُند إلى الغزو.

والبعث: القوم المبعوثون.

بعث: من معانيها: وجّه، يقال: بعث الجند يبعثُهم بعثاً: وجّههم.

بعث: من معانيها: أيقظ، يقال: بعثه من نوم بعثاً فانبعث: أيقظه وأهبّه.

بعث: من معانيها أحلّ،يقال: بعث عليهم البلاء: أحلّه.

وجمع البعث: بُعوث، وجمع البعيث: بُعُث.

وبالمقارنة بين «بعث» و«أرسل» نجد أن المادتين تلتقيان في بعض المعاني، وتفترقان في بعض المعاني الأخرى.

وأن كل صيغة من هاتين الصيغتين لها ظروفها الخاصة، ووصفها المميز في الاشتقاق، فإذا جاز لنا أن نقول: بعثه فانبعث ومنه قوله تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾، فلا يجوز أن نقول: أرسله فانْرَسل[1].

* * *

(١) اللسان: «بعث».

انفجر ـ انبجس:

فجر:

وردت فجَّر فعلاً ماضياً مضعّفاً على وزن: فعّل في عدة آيات منها: ﴿وفَجَّرْنَا خِلالَهُما نَهراً﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وفجّرنا فيها من العُيون﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وفَجَّرنَا الأرض عُيوناً﴾(٣).

ووردت فعلاً مضارعاً: تُفجّر ـ يَتَفَجّرُ.

ووردت مادتها فعلاً ماضياً مزيداً على وزن: انفعل في قوله تعالى: ﴿فانْفَجَرَتْ منه اثْنتا عَشْرَةَ عَيْناً﴾(٤).

ووردت المادة مصدراً في قوله تعالى: ﴿فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالها تَفْجيراً﴾(٥).

ولم ترد هذه الصيغة اسماً يحمل معنى الفعل في القرآن الكريم فالكلمات: فاجر ـ فَجَرة ـ فُجّار ـ فُجور، لها دلالات خاصّة قد تربطها بهذه المادة علاقة معنويّة، ولكن اتخذت هذه الأسماء معاني مستقلّة، وإن كانت مرتبطة بجذور هذه المادة، وعند التحليل نجد أن هناك معنىً مشتركاً عاماً يشدّ هذه الأسماء إليه.

«فجر» من الوِجْهَة اللّغوية:

فجرَ بمعنى: انبجس، يقال: فَجرَهُ ويَفْجُره بالضمّ فجْراً فانْفَجَرَ أي بَجَسَهُ فانْبجس. وفَجّر شُدّد للكثرة.

ويقال أيضاً: تفجّر الماءُ أي انبعث سائلاً، وكذلك يقال في انفجر.

---

(١) الكهف: ٣٣.

(٢) يس: ٣٤.

(٣) القمر: ١٢.

(٤) البقرة: ٦٠.

(٥) الإسراء: ٩١، والإنسان: آية: ٦ في قوله تعالى: «يفجرونها تفجيراً».

فجر من معناها: أخرج، يقال: أفجر ينبوعاً من ماء أي أخرجه[1].

ب ـ بجّس:

لم ترد في القرآن الكريم إلاّ مرّة واحدة على وزن انفعل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنا أن اضْرِبْ بعصاك الحجر فانْبَجَسَتْ منه اثْنَتَا عَشْرة عَيْناً﴾[2].

«بجس» من الوجهة اللغوية:

يقال بَجسْتُه أبْجِسُه، وأبْجُسُه بَجْساً فانبجث، وبَجَّسْتُهُ فَتَبجّس، ومنه: السّحاب يتبجس بالمطر.

ومصدر انبجس: انبجاس، والانبجاس عام، والنّبوع للعين خاصّة.

ومصدر«بجس» البَجْس، وهو انشقاق في قِرْبة أو حَجَرٍ أو أرض ينبعُ منه الماء، فإن لم ينبع الماء فليس بانبجاس.

وبَجَسَ بمعنى فجر، يَبْجُسُها: يفجّرها، وتبجّس أي تتفجّر[3].

وبالموازنة بين معاني هاتين الكلمتين نجد أن مادة «فجر» تكررت في القرآن كثيراً على حين وَقَعَتْ «انبجست» في موضع واحد.

وحيث إن القصة مع موسى فهو الذي ضرب بالحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وتكررت القصة مرّة أخرى فضرب بالحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً، فالقصة واحدة، لكن اختلف التعبير، فمرّة انْفَجَرت، ومرة انْبَجَسَتْ، فهل هما في القصة بمعنى واحد، وتنوّع التعبير بهما، أو بينهما فروق في المعنى، واختلاف في الدلالة؟

فأبو البقاء الكفوي يبيّن أن بينهما فرقاً، فقال في كليّاته: «الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيّق. والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع، وما في سورة البقرة لعله انبجس أولاً ثم انفجر ثانياً»[4].

---

(١) اللسان: فجر.
(٢) الأعراف: ١٦٠.
(٣) اللسان: «بجس».
(٤) الكليّات: ٣٣٧/١.

وأبو عمرو بن العلاء يفرق بينهما، فيقول: انبجست: عَرِقَتْ وانفجرت: سالت.

والراغب الأصفهاني يفرّق بينهما أيضاً فيقول: يقال: بَجَس الماء وانبجس: انفجر، لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يَخرُجُ من شَيءٍ ضَيّق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يَخْرُجُ من شيءٍ واسع، ولذلك قال تعالى: ﴿فانْبَجَسَتْ منه اثْنَتا عَشْرَةَ عيْناً﴾ وفي موضع آخر، «فانْفَجَرَتْ» فاسْتُعمل حيث ضاق الْمَخْرَج اللّفظتان، يعني ففرّق بينهما بالعموم والخصوص، فكل انبجاس انفجار من غير عَكْس.

والهروي يرى أنه لا فرْق بين الكلمتين: قال:«يقال: انْبَجَس، وتبجّس، وتفجّر، وتفتّق بمعنى واحد»(١).

ويميل الألوسيّ إلى استعمالهما بمعنى واحد حيث علق بعد عرض الرأيين بقوله:«والظاهر استعمالهما بمعنى واحد، وعلى فرض المغايرة لا تعارض لاختلاف الأحوال»(٢).

* * *

(١) انظر هذه النصوص في الدر المصون: ٤/٤٨٨.

(٢) تفسير الألوسيّ: ١/٢٧١.

ختم ـ طبع:

أ. ختم:

وردت «ختم» في القرآن الكريم بلفظ الماضي، وبلفظ المضارع: «نَخْتِم، ويَخْتِم». ووردت اسماً في ثلاث صيغ: خاتَم ـ خِتام ـ مَخْتوم.

ففي قوله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿خَتَمَ اللهُ على قُلوبهم﴾[1] الختم على القلوب مع وجود خلاف بين النحويين في عطف «وعلى سمعهم».

وفي قوله تعالى في سورة «الجاثية»: ﴿وخَتَمَ على سمعه وقلبه﴾[2] الختم على السمع والقلب معاً.

وفي قوله تعالى في سورة «يس»: ﴿اليوم نَخْتِم على أفواههم﴾[3] الختم على الأفواه.

الختم من الوجهة اللغوية:

يقال: خَتَمهُ، يَخْتِمه، خَتْماً، وخِتاماً: طبَعه، فهو مختوم، ومُخَتَّم شُدّد للمبالغة. والخاتِم: الفاعل.

ومعنى الختْم على القَلْب: ألاّ يفهم شيئاً، ولا يَخْرُج منه شيء كأنه طُبِع.

وقد اختلف المفسّرون في معنى قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ على قُلوبهم﴾ فقال أبو إسحاق: معنى ختم وطبع في اللّغة واحد، وهو التّغطية على الشيء، والاستيثاق من أن لا يدخل شيء كما قال ـ جلّ وعلا ـ: ﴿أَم عَلَى قُلوبٍ أقفالُها﴾[4].

وفي الآية القرآنية: ﴿أَمْ يَقُولون افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً فإنْ يَشَأ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قلبك﴾[5]، ما يشير إلى أن المشركين ادّعوا كَذباً وزُوراً بأن الرسول ﷺ افْتَرى على الله بدعوى النبوة والقرآن، والهمزة للإنكار التوبيخيّ.

---

(١) البقرة: ٧.

(٢) الجاثية: ٢٣.

(٣) يس: ٦٥.

(٤) محمد: ٢٤.

(٥) الشورى: ٢٤.

ووضّح الألوسيّ «أن هذا الأسلوب مؤدّاه استبعاد الافتراء من مثله عليه الصّلاة والسلام، وأنه في البُعد مثل الشرك بالله سبحانه، والدخول في جملة المختوم على قلوبهم، فكأنه قيل: فإن يشأ الله سبحانه يَجْعَلْكَ من المختوم على قلوبهم حتى تفتري عليه الكذب، فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله تعالى إلاّ من كان في مثل حالهم وهو في معنى: فإن يَشَأْ يَجْعَلْك منهم، لأنهم هم المفترون الذين شَرعوا من الدِّين ما لَمْ يأذَن به الله تعالى، وما أحسن هذا التّعريض بأنهم المفترون، وأنهم في نفس هذه المقالة عن افترائهم مفترون.

ونظير الآية فيما ذكر قول أمينٍ نسب إلى الخيانة: لعل الله تعالى خذلني، لعل الله تعالى أعمى قلبي، وهو لا يريد إثبات الخذلان، وعَمى القلب، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثلُه، والتنبيه على أنه رُكّبَ من تخوينه أمرٌ عظيم، فالكلام تعليل لإنكار قولهم.

وأتى بـ «إنْ» مع أنّ عدم مشيئته تعالى مقطوع بها، قيل: إرجاءاً للعنان، وقيل: إشعاراً بعظمته تعالى، وأنه سبحانه غنيّ عن العالمين»(١).

من معاني ختَم: سَقَى، يقال: ختم زرعه يَخْتِمهُ، وختم عليه: سقاه أوّل سَقْيه، والخِتَام: اسم له، لأنه إذا سقَى خُتِم بالرجاء، وقالوا: ختَموا على زروعهم: أي سقوها(٢).

ب ـ طبع:

وردت «طبع» في القرآن الكريم بصيغة الماضي «طبع» في ستة مواضع، أربعة منها مبنيّة للمعلوم، واثنتان بصيغة المبني للمفعول: طُبِع.

ووردت بصيغة المضارع: «نَطبع» في موضعين، ويَطْبع في موضعيْن، ومما تلحظه أن «طبع» ماضياً أو مضارعاً جاءت مع القلوب، و لم تجيء مع السّمع حيث جاء صيغة ختم مع السمع مرّة واحدة كما قدّمنا في سورة الجاثية.

---

(١) تفسير الألوسي: ٣٣/٢٥ ، ٣٤.

(٢) اللسان: «ختم».

طبع من الوجهة اللّغويّة :

يقال: طبع عليه يَطْبَعُ طَبْعاً: خَتَمهُ.

والطَّابَعُ والطَّابِعُ بالفتح والكسر: الخاتِم الذي يُختَمُ به.

ويقال: طبع الله على قلبه: ختم على المثل.

ويقال: طبع الله على قلوب الكافرين: أي ختم، فلا تعي.

وقال أبو إسحاق النّحوي: معنى طبع في اللغة وختم واحد، وهو التّغطية على الشيء، والاستيثاق من أن يدخله شيء، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلوبٍ أَقْفَالُها﴾(١)، وقال عز وجلّ:﴿كلاّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهم﴾(٢) معناه: غطّى على قلوبهم، وكذلك «طبع الله على قلوبهم».

قال ابن الأثير: كانوا يرون أن الطّبع، هو الرّين.

قال مجاهد: الرّين: أيسر من الطبع، والطّبع أيسر من الإقفال، والإقفال: أشدّ من ذلك كُلّه.

هذا تفسير الطّبْع بإسكان الباء.

وأما طَبَعُ القلب بتحريك الباء فهو تلطيخه بالأدناس. وأصل الطّبع: الصدأ يكثر على السيف وغيره.

وفي الحديث:«من ترك ثلاث جُمَع من غير عُذْرٍ طَبَع الله على قَلْبِه»(٣) أي ختم عليه، وغَشاه ومنعه ألطافه.

والطّبَعُ بالتحريك: الدّنسُ، وأصله من الوَسَخ والدّنس يغشيان السّيف، ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرهما من المقابح.

ومن معاني طبع: ملأ، يقال: طَبع الإناء والسّقاء يَطْبَعُه طَبْعاً، وطبّعه تَطْبيعاً فتطبّع: ملأه.

ومن معاني طبع: فاض، يقال: تطبّع النّهر بالماء: فاض به من جوانبه وتدفّق.

---

(١) محمد: ٢٤.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) في رواية النسائي، باب الجمعة:«تهاوناً بها» مكان «من غير عذر»، انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٣/٥٣٢.

ومن معانيها: صدئ: يقال: طبع السّيف وغيره طَبَعاً فهو طَبِعٌ: صَدِئ، قال جرير:

وإذا هَزَزْتُ قَطَعْتُ كُلَّ ضريبة وخَرَجْتُ لا طَبِعاً ولا مَبْهوراً(١)

ومن معانيها: اتّسخ، يقال: طَبِع الثّوب طَبَعاً: اتّسخ(٢).

وبالمقارنة بين الكلمتين: ختم وطبع نعلم أن الآيات القرآنية في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلوبهم﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿كَذلك نَطْبع على قُلوب المعتدين﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿كذلك يَطْبَعُ اللهُ على قلوب الكافرين﴾(٥).

نجد في هذه الآيات وغيرها التي اشتملت على هذه المادّة تعني: ختم.

أما المعاني الأخرى التي انفردت بها طبع أو ختم فإنها نشأت من تغيير الصّيغ والتصريف والاشتقاق، لكن الأصل في الطبع هو الختم.

ويفرق الكفوي في كلّياته بين الطّبع والختم، فيقول:

«الطبع: أعم من الخَتْم، وأخصّ من النّقش.

قال بعضهم: الطّبْع، والخَتْم، والأَكِنّة، والأقفال: ألفاظ مترادفة»(٦).

* * *

(١) ديوان جرير: ٢٢٣ برواية: «وقضيت» مكان: «خرجت».

(٢) اللسان: «طبع».

(٣) التوبة: ٩٣.

(٤) يونس: ٧٤.

(٥) الأعراف: ١٠١.

(٦) الكليات لأبي البقاء الكفوي: ١٥٨/٣.

آثر . فضّل:

أ . آثر:

وردت «آثر» في القرآن الكريم فعلاً ماضياً في قوله تعالى: ﴿وآثر الحياة الدنيا﴾(١).

ووردت فعلاً مضارعاً في قوله تعالى: ﴿بل تُؤثرون الحياة الدنيا﴾(٢).

ووردت مضارعاً كذلك في «المدثر ٢٤»، و«طه ٧٢»، و«الحشر ٩».

ولم ترد اسماً أو مشتقاً.

آثر من الوجهة اللغوية:

يقال: آثره عليه: فضّله، وأَثِر أن يفعل كذا أَثَراً، وأثر وآثر: كلُّه فضّل وقدّم.

وآثرت فلاناً على نفسي من الإيثار.

وقال الأصمعيّ: آثرتك إيثاراً، أي فضّلتك.

وقال الحطيئة يمدح عمر رضي الله عنه:

ما آثروك بها إذْ قدّموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بها الإثرُ(٣)

أي الخِيَرة والإيثار.

ومن معانيها: الاختصاص بالشيء والاستبداد به كقولهم: استأثر بالشيء على غيره: خصّ به نفسه واستبدّ به.

قال الأعشى:

استأثر الله بالوفاء وبالعَد ... دل، وولّى الملامة الرّجلا(٤)

ذ والأثرة بفتح الهمزة والثّاء:الاسم من آثر يؤْثر إيثاراً: إذا أعطى.

والاستئثار: الانفراد بالشيء، ومنه حديث عمر: فوالله ما أَسْتَأْثِر بها عليكم، ولا آخُذُها دونكم (٥).

---

(١) النازعات: ٣٨.

(٢) الأعلى: ١٦.

(٣) ديوان الحطيئة:١٦٥، وروايته:

لم يؤثروك بها إذْ قدّموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الخِيَرُ

(٤) ديوان الأعشى:١٧١.

(٥) اللسان: آثر.

ويقول السمين الحلبيّ: «آثرك» أي تفضل عليك.

والإيثار: التفضل بجميع أنواع العطايا، يقال: آثره يُؤْثره إيثاراً، وأصله من «الأثر» وهو تتبع الشيء، فكأنه يستقصي جميع أنواع المكارم.

وفي الحديث: «ستكون بعدي أثرة»(١) أي يستأثر بعضكم على بعض.

ويقال: استأثر بكذا، أي اختص به، واستأثر الله بفلان: كناية عن اصطفائه، قال الشاعر:

والله أسماك سُماً مباركاً ... آثرك الله بها إيثاركا(٢)

ب ـ فضّل:

وردت فعلاً ماضياً في عدّة آيات:

منها قوله تعالى: ﴿ولا تَتَمَنّوْا ما فضّل الله به بَعضكُم على بَعْضٍ﴾(٣).

ووردت فعلاً مضارعاً مرتين فقط، وهما:

﴿ونُفضّلُ بعضَها على بعضٍ في الأُكُل﴾(٤)

﴿يُرِيدُ أن يتفضّل عليكم﴾(٥)

ووردت اسماً في مواضع كثيرة منها قوله تعالى:

﴿فلولا فَضْلُ الله عليكم ورَحْمتُه لَكنتم مِنَ الخاسرين﴾(٦).

ووردت مصدراً مرتين في قوله تعالى: ﴿وأكبر تفضيلاً﴾(٧).

وفي قوله تعالى: ﴿وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً﴾(٨).

---

(١) فتح الباري باب «الفتن»: ١٣/٤٥.

(٢) لأبي خالد القناني، من شواهد الإنصاف: ١٥، وأوضح المسالك: ١/٢٥، والعيني: ١/١٥٤، وانظر الدر المصون: ٦/٥٥٤.

(٣) النساء: ٣٢.

(٤) الرعد: ٤.

(٥) المؤمنون: ٢٤.

(٦) البقرة: ٦٤.

(٧) الإسراء: ٢١.

(٨) الإسراء: ٧٠.

فضّل من الوجهة اللغوية:

يقال: فلان يتفضّل على قومه: يدّعي الفضل عليهم. وفاضلني فلان ففضلته أفضله، وهو مفضول: مغلوب. ورأيت صفهم قد أفضل على صفّنا أي زاد عليه، وكان أكثر منه، وأخذ حقه، واستفضل ألفاً: إذا أخذه فاضلاً عن حقه(١).

وعلق ابن منظور في اللسان على قوله تعالى:﴿وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً﴾ قائلاً: «تأويله أن الله فضّلهم بالتمييز، وقال: «على كثير ممن خلقنا» ولم يقل:«على كل» لأن الله تعالى فضل الملائكة فقال:﴿ولا الملائكةُ المقرّبون﴾(٢)، ولكن ابن آدم مفضل على سائر الحيوان الذي لا يعقل» .

ومن معاني فضل: التصيير، قالوا: فضلته على غيره تفضيلاً: أي صيّرته كذلك.

ومن معانيها: الزيادة: يقال: أفضَل عليه: زاد، قال ذو الأصبع:

لاه ابن عمك لا أفضَلْت في حسب عني ولا أنت ديّاني فتخزوني(٣)

ومن معانيها: التطوّل، يقال: تفضلت عليه، وأفضلْت: تطولت(٤).

في ضوء هاتين المادتين نستطيع أن نقول: إن المعنى فيهما يدور حول محور واحد، وهو الزيادة وإن اختلفت المادّتان في بعض المعاني بناء على الاختلاف في الصيغ.

* * *

(١) أساس البلاغة للزمخشري:٤٧٦.

(٢) النساء: ١٧٢.

(٣) من شواهد الخصائص: ٢٨٨/٢، وابن الشجري: ١٣/٢، ٢٦٩، وابن يعيش: ٥٣/٨، ١٠٤/٩، والمقرب: ١٩٧/١، وخزانة الأدب: ٢٢٢/٣، ٢٤٣/٤، والمغني رقم٢٦٠، والعيني: ٢٨٦/٣، والتصريح: ١٥/٢، والأشموني: ٢٢٣/٢.

(٤) انظر اللسان: «فضل».

أسى ـ حَزِن:

أ ـ أسى:

لم ترد فعلاً ماضياً أو أمراً، ولم ترد كذلك اسماً، وإنما وردت فعلاً مضارعاً مبدوءاً بالهمزة في قوله تعالى: ﴿فكيف آسَى على قَوْمٍ كافرين﴾(١).

ووردت فعلاً مضارعاً مبدوءاً بالتاء في ثلاثة مواضع:

في قوله تعالى: ﴿فلا تَأسَ على القوم الفاسقين﴾(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿فلا تأسَ على القوم الكافرين﴾(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿لكيلا تأسَوْا على ما فاتكم﴾(٤).

أسى من الوجهة اللغوية:

يقال: أسوت الجُرْح فأنا آسوه أسْواً: إذا داويته وأصلحته.

ويقال: أسِيتُ عليه أسًى: حزنت، وأسِيَ على مصيبته بالكسر يأسى أسًى مقصور: إذا حزن.

ويقال: رجل آسٍ وأسْيان: حزين، ورجل أسْوان: حزين، وفي حديث أبيّ بن كعب: «والله ما عليهم آسى، ولكن آسى على من أضلّوا»(٥).

وفي الدر المصون: «لام الكلمة تحتمل أن تكون من واو، وهو الظاهر لقولهم: أسوان بزنة سَكْران، أي كثير الحزن، وقالوا في تثنية الأسى: أسَوَان.

وإنما قلبت الواو في «أسِيَ» ياءً لانكسار ما قبلها.

ويحتمل أن تكون ياء، فقد حكى: «رجل أسْيان»، أي كثير الحزن فتثنيته على هذا: «أسْيان»(٦).

---

(١) الأعراف: ٩٣.

(٢) المائدة: ٢٦.

(٣) المائدة: ٦٨.

(٤) الحديد: ٢٣.

(٥) اللسان: «آسى».

(٦) الدر المصون: ٤/٢٣٧.

ب ـ حزن:

لم ترد هذه المادة في القرآن الكريم فعلاً ماضياً، وإنما وردت فعلاً مضارعاً في صيغ مختلفة، منها ما هو مبدوء بالتاء وذلك في قوله تعالى: ﴿لا تَحْزَنْ إن الله معنا﴾(١).

ومنها ما هو مبدوء بالياء وذلك في قوله تعالى: ﴿ولا يَحزَنَّ و يَرْضَيْنَ﴾(٢).

ووردت اسماً على صيغة فُعْل في قوله تعالى: ﴿وابيضَّتْ عيناه من الحُزن﴾(٣).

وعلى وزن فَعَل في قوله تعالى: ﴿ليكون لهم عَدُوّاً وحَزَنًا﴾(٤).

حزن من الوجهة اللّغوية:

يقال: حَزِن واحتزَن، قال العجاج:

* بكيت والمُحْتَزِن البكيّ *(٥)

ويقال: «ما أشدّ حُزْنه وحَزنه»(٦).

ويعرّف الكفويّ الحزن بقوله: «الحزن: هو غم يلحق من فوات نافع أو حصول ضار».

وفي «أنوار التنزيل»: الخوف علّة المتوقع، والحزن علّة الواقع.

ومعنى قوله تعالى: ﴿لَيَحْزُنُني أن تذهبوا به﴾(٧): قصد أن تذهبوا به، والقصد حاصل في الحال، وقد نظمت فيه:

عليك بأن تسعى لإحراز رتبة ... لأنت بها للشدّتين مدافع

وذاك بالنص الجليل مقرّر ... هما علتان الواقع المتوقّع(٨)

وتوضيح ذلك ما جاء في «الدر المصون» قال: قوله تعالى: ﴿أن تذهبوا به﴾ فاعل يحزنني «أي يَحزُنني ذهابكم».

---

(١) التوبة: ٤٠.

(٢) الأحزاب: ٥١.

(٣) يوسف: ٨٤.

(٤) القصص: ٨.

(٥) ديوان العجاج: ٢١٠.

(٦) أساس البلاغة: ١٢٥.

(٧) يوسف: ١٣.

(٨) الكليات: ١/٢ : ٣.

وفي هذه الآيـة دلالـة علـى أن المضـارع المقـترن بـلام الابتـداء لايكـون حـالاً، والنحاة جعلوها من القرائن المخصّصة للحال.

ووجه الدلالة: أنّ «أن تذهبوا» مستقبل لاقترانه بحرف الاستقبال وهي «أن» وما في حيّزها فاعل، فلو جعلنا «ليحزنني» حالاً لزم سبق الفعل لفاعله وهو محال.

وأجيب عن ذلك بأن الفاعل في الحقيقة مقدّر، حذف هو، وقـام المضـاف إليـه مقامه، والتقدير: ليحزنني توقّع ذهابكم[1] .

وبالمقارنة بين المـادتين نجـد أن الـترادف بـين: «آسـى» و«حـزن» واضـح جـداً، فكلاهما يوديـان إلى معنـى واحـد، ولا يضـير أن تعطـي كلمـة: «الأسـى» المواسـاة والعلاج منفردة بذلك عن كلمة «الحزن».

* * *

(١) الدر المصون: ٦/٣٥١ ـ ٣٥٢.

- تلا - قرأ:

أ- « تلا »:

وردت فعلاً ماضياً مبنياً للمعلوم في قوله تعالى:

﴿قُلْ لو شاء اللهُ ما تَلَوْتُهُ عليكم ولا أَدْراكُم به﴾(١)

ومبنيًّا للمفعول في قوله تعالى:

﴿وإذَا تُلِيَتْ عليهم آياتُه زادَتْهم إيماناً﴾(٢)

وعلى الرغم من تكرار هذه المادة في القرآن الكريم فإنها لم ترد ماضياً إلا في هذين الموضعين.

ووردت فعلاً مضارعاً بصيغ مختلفة في عدة آيات، ومن الصيغ ما هو مبدوء بالهمزة وبالتاء وبالنّون مع إلحاق الضمائر في حالة الرفع، وفي حالة النّصْب.

ووردت فعْل أمر بصيغة «اتْلُ» في ستة مواضع.

ووردت اسماً مُشْتَقّاً في قوله تعالى:

﴿فالتّالياتِ ذكراً﴾(٣)

ومصدراً في قوله تعالى:

﴿ يَتْلونَهُ حقَّ تلاوته﴾(٤)

«تلا» من الوجهة اللغوية:

من معاني «تلا»: قَرَأ، يقال: تلوْتُ القرآن تِلاوةً: قرأته.

على أن بعض اللّغويين لا يقصر التلاوة على قراءة القرآن بل تشمل التلاوة كل كلام سواء كان قرآناً أو غيره.

---

(١) يونس: ١٦.

(٢) الأنفال: ٢.

(٣) الصافات: ٢.

(٤) البقرة: ١٢١.

قال صاحب اللسان: وعمّ به بعضُهم كُلَّ كلام، وأنشد ثعلب:

واسْتَمعُوا قولاً به يكوى النِّطِفْ يكاد من يتلى عليه يُجْتَأفْ(١)

ومن معاني تلا: اتّبع كقوله تعالى:

﴿الّذين آتيناهُم الكتابَ يَتْلونَهُ حقَّ تلاوتهِ﴾(٢)

قالوا: معناه يَتّبِعُونه حَقَّ اتّباعه ويعملون به حقّ عمله.

- ومن معاني تلا: قصّ كقوله تعالى:

﴿واتَّبعُوا ما تَتْلو الشَّياطينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ﴾(٣) ، قال عطاء: على ما تُحدِّثُ به وتَقُصّ.

- ومن معاني تلا: أن يحكي الإنسان فِعْل إنسان آخر، قالوا: فلان يتلو فلاناً، أي يَحْكيه ويتّبع فِعْلَه.

- ومن معانيها: التّتبّع والتّعهّد: قالوا: هو يُتلي بقيّة حاجته أي يَقْتَضيها ويتعهّدُها(٤)

ب- قرأ:

جاءت فعلاً ماضياً مبنيًّاً للمعلوم في أربع آيات، منها: قوله تعالى:

﴿فإذا قَرَأْتَ القرآن فاسْتَعِذْ باللهِ من الشّيطان الرجيم﴾(٥)

ومبنيّاً للمفعول في آيتين، قوله تعالى:

﴿وإذا قُرِئَ القرآنُ فاسْتَمِعُوا له﴾(٦)

وقوله تعالى:﴿وإذا قُرِئَ عَلَيْهم القرآن لا يَسْجدُون﴾(٧)

---

(١) النطف كما في القاموس: من اتهم بريبة، ويجتأف: يفزع من شدة وقعه.

(٢) البقرة : ١٢١.

(٣) البقرة : ١٠٢.

(٤) اللسان: تلا.

(٥) النحل: ٩٨.

(٦) الأعراف: ٢٠٤.

(٧) الانشقاق: ٢١.

ووردت فعلاً مضارعاً في عِدّة صيغ: تقرأ - نقرأ - يقرأ.

ووردت فعلاً مضارعاً مقروناً بالسين مرة واحدة فقط في قوله تعالى:

﴿سَنُقْرِئُك فلا تَنْسى﴾(١).

ووردت فعل أمر «اقرأ» في ثلاثة مواضع، «واقرؤوا» في ثلاثة مواضع.

ووردت اسماً، وهو القرآن، وقد تكرر في مواطن كثيرة من القرآن الكريم.

- قرأ من الوجهة اللغوية

في اللغة: قَرَأَ يقرَأُ، قَرْءاً وقراءةً وقرآناً فهو مقروء.

ومن معاني قرأ: جمع، يقال: قرأت الشيء قرآناً: جمعته وضَمَمْتُ بعضَه إلى بعض.

قال ابن الأثير: «تكرّر من الحديث ذكر القراءة، والاقتراء، والقرآن، والأصل من هذه اللفظة الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرأته، وسُمِّي القرآن، لأنه جمع القصص، والأمْرَ والنّهي، والوعد والوعيد، والآيات والسّور بَعْضها إلى بعض وهو مصدر كالغُفْران والكفران(٢).

وبالمقارنة بين هاتين المادّتين، «قرأ» و «تلا» نجد أن المعنى الذي يتفقان فيه هو الجمع، فالقارئ حينما يقرأ فإنّما يقرأ كلاماً مجموعاً بعضه إلى بعض، والتّالي حينما يتلو فإنما يتلو كلاماً يَتْبَع بعضُه بَعْضاً.

على أنّه بالتّتبع القرآني استعملت «تلا» وما تفرع منها في صيغ ومقامات تختلف عن المقامات التي استُعْمِلَتْ فيها قرأ، فلو أخَذْنا على سبيل المثال الأمْرَ من «تلا»والأمر من «قرأ »، نجد أن الأمر من «تلا» استعمل في مساحة قرآنية أوسع من المساحة التي استعمل فيها الأمر من «قرأ» وتوضيح ذلك فيما يلي:

١ - في قوله تعالى:

﴿اتْلُ ما أُوحِيَ إلَيْكَ من الكتاب﴾(٣)

---

(١) الأعلى: ٦ .

(٢) اللسان: «قرأ» .

(٣) العنكبوت: ٤٥ .

نجد أن كلمة «اتل» تُعْطِي معنى القراءة أي دُمْ على تلاوة ذلك تقَرُّباً إلى الله، لأنك تقرأ كلاماً ليس من كلام البشر، ولكنه من كلام الله تعالى الذي أُوحي إليك، وإلى جانب هذه القراءة تعطي كلمة «اتل» إشعاعاً آخر إلى جانب القراءة وهو كما قال الألوسي: التّذكّر «لما في تضاعيفه من المعاني، وتذكيراً للنّاس، وحملاً لهم على العمل بما فيه من الأحكام ، ومحاسن الآداب ، و مكارم الأخلاق»(١). وقد عرفنا أنّ المعاني اللغوية لـ «تلا» الاتباع.

وهذا المعنى غير متوفّر في كلمة: «اقرأ» لو وضعت مكان «اتل».

٢- ارتباط «اتل»بالأحكام الشرعية التي تدور حول الحلال والحرام، وهو موقف إنذاري لاتسعف فيه كلمة: «اقرأ» وذلك في قوله تعالى:

﴿ قُلْ تعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عليكم﴾(٢)

لأن هذه المحرمات قانون، والقانون يُتْلى ولا يقرأ، لأن القراءة لا تعطي المعنى الذي نلمسه في «اتل» و«أَتْلُ» تعطي معنى القراءة إلى جانب معنى الالتزام الذي تُوحي به كلمة «أَتْلُ» على حين تعطي كلمة «اقرأ» مجرد القراءة.

والنحويون يعربون «ما» في قوله تعالى: ﴿ما حرّم﴾ إما موصولة، والعائد محذوف ، أي اقرأ الذي حرّمه رُبكم، أي الآيات المشتملة عليه، وإما مصدرية أي :تحريمه.

والمراد الآية الدالة عليه، وهي في الاحتمالين في موضع نَصْب على المفعوليّة لـ «اتل»(٣).

٣- اتل: ارتباطها بالأحداث التاريخية في القرآن الكريم أوضح من أن يَخْفى على أحد، على حين لم تُسْتَعْمل كلمة «اقرأ» في أي حدث تاريخي، ذلك لأن الأحداث التاريخية لا تكفي فيها قراءة المكتوب، إنها مجرد قراءة لا تُثير مشاعر، ولا تُوقظ أحاسيس على حين نجد كلمة «اتل» توقظ الأذهان وتذكي الوجدان،وتثير

---

(١) تفسير الألوسي ٢٠ / ١٦٣ .

(٢) الأنعام: ١٥١ .

(٣) انظر تفسير الألوسي ٨/٥٣ .

الانتباه لأنها تعطي معنى: «قصّ» أو حدّث إلى جانب المعنى اللغوي، وهو: «اقرأ» نرى ذلك في المواقف القرآنية الآتية:

أ - في قوله تعالى:

﴿ واتْل ما أوحي إليك من كتَاب ربّك﴾(١) . وما أوحي إليه من ربّه قصة أصحاب الكهف، وهي قصة تاريخية، ويفسر الألوسي معنى هذه الآية فيقول: «إنه سبحانه لما ذكر قصّة أصحاب الكهف، وكانت من المُغَيَّبات بالإضافة إليه ﷺ ، ودلَّ اشتمال القرآن عليها على أنه وحي مُعْجز من حيثية الاشتمال، وإن كانت جهة إعجازه غير منحصرة في ذلك أمره (جل شأنه) بالمواظبة على درسه بقوله سبحانه﴿ واتل﴾ إلخ هو أمرٌ من التِّلاوة بمعنى القراءة أي لازم تلاوة ذلك على أصحابك، أو مُطْلقاً.

وقيل: إنه سبحانه لَمّا نهاه عن المراء المتعمّق فيه، وعن الاستفتاء أمره سبحانه بأن يتلو ما أوحي إليه من أمرهم [أعني أمر أهل الكهف] فكأنه قيل: اقرأ ما أُوحي إليك من أمرهم، واستَغْنِ به ولا تتعرّض لأكثر من ذلك، أو اتّبع ذلك وخُذْ به ولا تتعمّق في جدالهم، ولا تَسْتفت أحداً منهم»(٢) .

ب - قصة ابني آدم:

في الحديث عن هذه القصة استعمل القرآن الكريم صيغة: «اتل» حيث قال تعالى:

﴿واتْلُ عَلَيْهِم نَبأ ابْنَيْ آدم﴾(٣)

لأن في التلاوة معنى: «اقْصُصْ» على حين لا تعطي القراءة هذا المعنى.

وفيها دلالة تاريخية تشير إلى أن هذه القصة سُجِّلت في كتب بني إسرائيل، ولا يعلمها إلا من سبر غور ديانتهم، وأجاد لغتهم، وعرف مكنون كتابهم، والرّسول

---

(١) الكهف: ٢٧ .

(٢) تفسير الألوسي ١٥/ ٢٥٦، ٢٥٧

(٣) المائدة :٢٧

ﷺ أميٌّ لا يقرأ، فحينما يتلو على بني اسرائيل قصة ما وقع لابْنَي آدم فإن هذا أول دليل على صدق نُبوَّته، لأنه علم بهذه عن طريق الوحي.

ولو وضعت كلمة «اقرأ» مكان «اتل» لما استطاعت أن تؤدي هذه المعاني التي ترتبط بالتاريخ، والتاريخ مجاله الرواية والحديث في هذا الوقت، وليس مجاله الكتب المدونة لأنها قليلة وقراؤها قليلون. قال الألوسي: « وضميرعليهم » يعود على بني إسرائيل كما هو الظاهر، إذ هم المُحَدَّثُ عنهم أوّلاً، وأُمِرَ ﷺ بتلاوة ذلك عليهم إعلاماً لهم بما هو في غامض كُتُبهم الأوَل الذي لا تعلّق للرسول ﷺ بها إلا من جهة الوَحي، لتقوم الحُجَّة بذلك عليهم.

وقيل:الضمير عائد على هذه الأمة، أي اتل يا محمد على قومك نبأ ابْنَي آدم»(١).

وليست «اتل» مجرّد التلاوة، ولكنها التلاوة الملتبسة بالحق والواقع، وليست تلاوة قصة هي من نسْج الخيال. كل ذلك ينبعث من أشعة: «اتل» مع أن «اقرأ» لا تعطي إلا معنى القراءة المجرّدة.

جـ - في قصة إبراهيم عليه السلام:

في قوله تعالى:

﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾(٢)

والتّلاوة هنا تعني اقرأ عليهم خبر قصة إبراهيم، وهي قصة مليئة باللفتات العجيبة، فالنار المحرقة تتحول إلى برد وسلام، وإبراهيم جدّهم الأكبر الذي يفتخرون بالانتساب إليه فلعلّ في تلاوة هذه القصّة ما يدفعهم إلى الإيمان بك، والتسليم لك، والإقرار بدينك.

يقول الألوسي:﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾ أي خبره العظيم الشأن حسبما أوحي إليك ليتأكّد عندك لعدم تأثّرهم بما فيه العلم بشدّة عنادهم... لأن عدم

(١) تفسير الألوسي ٦/ ١١٠، ١١١ .

(٢) الشعراء: ٦٩ .

الإيمان بعد وقوفهم على ما تضمنته [أي هذه القصة] أقوى دليل على شدة شكيمتهم لما أنّ إبراهيم عليه السلام جدّهم الذي يفتخرون بالانتساب إليه والتأسي به»(١).

د - قصة نوح عليه السلام:

وقصة نوح مع قومه في عنادهم له، وتحديهم لدعوته شبيهة بعناد الكافرين للرسول ﷺ وتحديهم لدعوته، فالقصتان من مَنْبَع واحد، مَنبع الكفر الذي يتحدى الإيمان، ويقف في طريقه.

إنها قصة تهز النفوس فبعد الدعوة التي امتدت ألف سنة إلا خمسين عاماً ما زالوا في غيهم سادرين، فكانت العاقبة الهلاك والدمار إلا من آمن معه.

ولخطورة هذه القصة كان التعبير عنها بكلمة «اتل»يعطي إشعاعاً قوياً بأن تتطلب منهم هذه التلاوة التي يتلوها عليهم رسول الله ﷺ التدبّر، والعِبْرة، والعظة بمن مضى حتى يُقْلعوا عمّا هم فيه.

يقول الألوسي:﴿ نبأ نوح ﴾ خبره الذي له شأن وخطر مع قومه الذين هم أحزاب قومك في الكفر والعناد، ليتدبروا ممّا فيه مزدجر، فلعلّهم ينزجرون عمّا هم عليه، أو تنكسر شدّة شكيمتهم ولعل بعض من يسمع ذلك منك ممن أنكر صحة نبوءتك أن يعترف بصحّتها، فيؤمن بك بأن يكون قد ثبت عنده ممّا يوافق ما تضمّنه المتْلوّ من غير مخالفة له أصلاً فيستحضر أنك لم تسمع ذلك من أحد، ولم تستفده من كتاب، فلا طريق لعلمك به إلا من جهة الوحي وهو مدار النّبوة»(٢) .

هـ - قصة من أوتي علماً فانسلخ منه:

وهي قصة مثيرة، وتستحق أن تتلى لتكون عبرة للمعتبر، وعظة للمتعظين.

هذه القصة سجلها القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان﴾(٣)

---

(١) تفسير الألوسي ١٩ / ٩٢، ٩٣.

(٢) تفسير الألوسي ١١ / ١٥٦، ١٥٧ .

(٣) الأعراف: ١٧٥ .

إن كلمة «اتل» تمد القارئ والمستمع معاً بمعنى عجيب، معنى رجل أوتي العلم والكتاب، وبمقتضى هذا العلم عليه أن يعمل بما فيه ولكن الشيطان سوّل له وأملى، فانسلخ من العِلْم حتى لم يُبْقِ منه شيئاً قد يشدّه في المستقبل إلى الحق، ولكن المصيبة كبرت والداهية استفحلت حين ترك العلم كله وراء ظهره قصة ترتبط بكلمة «اتل» ارتباط اللحم بالدم، والماء بالعود الأخضر ولو وضعت كلمة «اقرأ» مكانها لم تعط إشعاعها، أو تصل إلى مكانها.

فكلمة «اتل» ارتبطت بالأخبار العظيمة الخطيرة في القرآن الكريم على حين لم تستعمل كلمة اقرأ في أي نبأ من أنباء القرآن أو في أي خبر من أخباره.

يقول الألوسي في تفسير هذه الآية مفَسراً الرجل الذي قص القرآن الكريم قصته:

«الأشهر أنه بلعام أو بَلْعم كان قد أوتي علماً ببعض كتب الله تعالى، وكان قد قرأ بعض الكتب فانسلخ منها أي من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة والمراد أنه خرج منها بالكلية بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره.

وحقيقة السلخ كشط الجلد وإزالته بالكلية من المسلوخ عنه وفي التعبير به ما لا يخفى من المبالغة»(١) .

- استعمالات كلمة «اقرأ»

بعد أن سقت أمثلة قرآنية لكلمة «اتل» والمقامات التي استعملت فيها، نعرض كلمة «اقرأ» لنرى كيف استعملت في القرآن الكريم ؟

اقرأ وردت مرتين في سورة واحدة، وهي سورة «العلق» ومرتين أيضاً في سورة واحدة هي سورة «المزمل» ومرة واحدة في سورة الحاقة.

أ - اقرأ في ضوء سورة العلق: ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾(٢) والقراءة هنا لها دلالاتها الخاصة فما كان النبي ﷺ بقارئ ، وموضوع المحاورة الذي كان بين جبريل عليه

---

(١) انظر تفسير الألوسي ١١١/٩ .

(٢) العلق: ١ .

السلام، والنبي ﷺ هو القراءة، وليس التلاوة، فالقراءة: إزالة غموض الكلام المكتوب، وأمّا التلاوة فليس في ما يُتْلى غموض لسابق المعرفة به، فإذا طلبت التلاوة فإنما هي تلاوة كلام مكتوب معروف.

فالموقف إذاً في هذه الحالة يتطلب كلمة «اقرأ» أي أزل غموض ما أمامك من الكلام بمعرفة حروفه ورسومه وهو أمر بالنسبة للرسول ﷺ لا يتحقق إلا بالمعجزة، ومن هنا كانت كلمة: اقرأ تعني أنك وإن كنت أمياً فالقراءة بالنسبة لك ليست عسيرة، لأن الله تعالى اختارك رسولاً نبياً، ورسالتك كتاب منزل، ومفتاحه القراءة ووسيلته القلم.

فإن كان القلم وسيلة الكتابة للقراءة والتعلم فوسيلتك أنك تتعلم القراءة بدون واسطة، وهذا سر المعجزة، فالموقف يقتضي أن تكون كلمة «اقرأ» في موضعها الطبعي، ولو أزيلت عنه، ووضعت مكانها كلمة: «اتل» لما كان للقراءة معنًى، لأن القراءة في هذا المقام معجزة النبي ﷺ.

وكان من أسرار القرآن الكريم حقاً أن تكون أول آية أنزلت من القرآن الكريم هذه الآية، لأن مفتاح العلم والمعرفة هو القراءة.

والسؤال الذي يقال هنا: ماذا يقرأ؟ وليس هناك ما يقرؤه وهذا سر آخر، يعطي الهدف الكبير أولاً، وهو يعتبر كل شيء، ذلك الهدف هو المتمثل في القراءة، ثم بعد ذلك يبدأ التفصيل وتتحرك المسيرة ابتداءً بالقراءة، وانتهاءً بالعلم والمعرفة.

والدليل على ذلك ما روي أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: اقرأ، قال: «وما أقرأ ؟» كرر عليه ثلاث مرات ثم قال له: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ فأخّر بيان ما أمره به أولاً مع إجماله إلى ما بعد ثلاث مرات من أمر جبريل عليه السلام، وسؤال النبي ﷺ مع إمكان بيانه أولاً)[1].

ثم كرّرت «اقرأ» مرة ثانية في نفس السورة وهي:

---

(١) انظر الألوسي ٣٠ / ١٧٩ .

﴿ اقرأ وربّك الأكرم﴾[1]، أي افعل ما أمرت به تأكيداً للإيجاب، وتمهيداً لما يَعْقُبه من قوله تعالى:﴿ وربك الأكرم﴾ إلخ فإنه كلامٌ مستأنف وأراد لإزاحة ما بينهُ ﷺ من العذر بقوله عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام حين قال له: اقرأ: ما أنا بقارئ، يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ،وأنا أمي، فقيل: وربك الذي أمرك بالقراءة مفتتحاً ومبتدأً باسم الأكرم الذي علّم بالقلم أي علّم ما علّم بواسطة القلم لا غيره – تعالى – فكما علم سبحانه القارئ بواسطة الكتابة بالقلم يعلّمك بدونها)[2].

ب – «اقرأ» في ضوء سورة المزمّل:

ورد الأمر من «قرأ» للجماعة مكرّراً مرتين في آية واحدة وهي قوله تعالى:﴿فاقرؤوا ما تيسّر من القرآن﴾ إلى قوله تعالى:﴿فاقرؤوا ما تيسّر منه﴾[3]، علماء التفسير اختلفوا في «اقرؤوا» الأولى: فمنهم من قال: إن القراءة معناها: الصلاة، أي فصلّوا ما تيسّر لكم من صلاة الليل، عبر عن الصلاة بالقراءة.

وآخرون ذهبوا إلى أن الصلاة على معناها الحقيقي وهو طلب قراءة القرآن.

وعلّق الألوسي على ذلك الرّأي الثاني بقوله: «وفيه بعد عن مقتضى السياق»[4].

وساق الألوسي الخلافات بين الفقهاء في الأمر بالقراءة هل هو على الوجوب أو النّدب.

والذي يعنينا لُغويّاً أن من معاني القراءة الصّلاة، والموضع الثاني من الآية هو:﴿فاقرؤوا ما تيسّر منه﴾ والضّمير في «منه» راجع إلى القرآن، أي اقرؤوا من القرآن بدون تحمّل مشقّة.

جـ : «اقرأ» في ضوء سورة «الحاقّة»:

وردت في قوله تعالى:﴿ فأمّا من أُوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا

---

(١) العلق: ٣ .

(٢) انظر الألوسي ٣٠ / ١٨٠ .

(٣) المزمّل / ٢٠ .

(٤) انظر تفسير الألوسي ٢٩ / ١١١ .

كتابيَه﴾[1]، وقوله تعالى:﴿ اقرأ كتابك كَفَى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[2]، هاتان القراءتان متعلقتان باليوم الآخر . قراءة الأعمال التي سجلها الإنسان والقراءة هنا لا تقوم مقامها: اتل، لأن الأعمال مجموعة في صحيفة واحدة، مرتبط بعضها ببعض، صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها ، فالقراءة هنا تعني الدّقة في الكلام المكتوب، بخلاف التلاوة التي تعني تتبّع الكلام المكتوب الذي يتبع بعضه بعضاً على مهل وروية.

والموقف يوم القيامة لا يتطلّب هذه الرّوية والتأني، لأنّ كُلّ إنسان يحاول أن يقرأ عمله جملة، ليطمئن قلبُه، وتهدأ نفسه.

على أية حال كانت نستطيع بعد هذا العرْض الذي قدمْته لهاتين المادتين: القراءة والتلاوة أن نبيّن بعض الفروق التي بينهما:

نعمْ هما يصبّان في مجرى واحد، وهو القراءة، فالقراءة تعني التلاوة والتلاوة تعني القراءة، فالكلمتان مترادفتان لكن لكل منهما مقامات مختلفة:

١- فمن حيث العدد نجد أن التلاوة بصيغها المختلفة ابتداء من الفعل الماضي، وانتهاء بالأسماء المشتقة أو المصادر تربو على القراءة، وإن زادت القراءة عليها في مادة «القرآن» حيث شغلت مساحات واسعة من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

٢- تنوعت المقامات المختلفة بالنّسبة للتلاوة، فأنباء الأنبياء وأخبار الرسل، وقصص أهل الكهف، والرجل الذي أوتي علماً ثم لم يعمل به، وانسلخ منه، كلها مرتبطة بالتلاوة، ولم ترد قصةٌ ما أو نَبأٌ ما بلفظ القراءة كما كان ذلك في مادة التلاوة.

٣- القراءة وردت في مواضع قليلة، وكلها تدور حول المعنى اللغوي للقراءة بخلاف التلاوة التي تنوعت مقاماتها، وتعدّدت مسالكها.

٤- التلاوة تعني العمل بما يُتْلى حتى يتحقق الهدف من التلاوة وذلك مأخوذ

---

(١) الحاقّة: ١٩ .

(٢) الإسراء: ١٤ .

من قوله تعالى: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾(١)، ولا شكّ أن حق التلاوة هو العمل بما يُتلى، وتحويل التلاوة إلى سلوك عمليّ في مسيرة الإيمان، فكأنها القاعدة التي لا تكمل إلا بالتدريب والتطبيق حتى تؤتي ثمرها.

٥- والقراءة تعني فهم ما يقرأ، ليتّضح المعنى، وينكشف الغموض ومن هنا كان البيان مرتبطاً بالقراءة في قوله تعالى: ﴿فاتّبع قُرآنه، ثُمّ إنّ عَلَيْنا بيانَه﴾(٢)، ولم نجد في كل الآيات التي ذكرت فيها التلاوة أن كلمة البيان جاءت في سياقها أو وقعت في عقبها، مما يدل على أن القراءة والبيان مرتبطان، لأن البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يُفضي السامع إلى حقيقته، ويهجُم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان ومن أي جِنْس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»(٣).

وخلاصة القول: أنّ القراءة والتلاوة مترادفتان، وإن كانت بينهما فروق فهي فروق المقام والسّياق بحيث لو وضعت إحداهما مكان الأخرى لاختلّ الإعجاز. على أن الإمام القسطلاني (ت ٩٢٣ هـ) سجّل في كتابه: «لطائف الإشارات» معنى التلاوة ومتطلّباتها فنقل نصّاً للغزالي - رحمه الله - يتعلّق بها فقال:

وقال الغزالي: أكثر الناس منعوا من فهم القرآن لأسباب وحجب أسْدَلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن.

أوّلها: «أن يكون الهمّ مُنْصَرِفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، قال: وهذا يتولّى حفظه شيطان وكّل بالقرّاء، ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله تعالى» (٤).

ثم قال: «وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب،

---

(١) البقرة : ١٢١ .

(٢) القيامة : ١٨، ١٩ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٧٦ .

(٤) لطائف الإشارات / ٣٢٧ .

فحظ اللسان: تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل: تفسير المعاني، وحظ القلب: الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، فاللسان يرتّل، والعقل ينزجر، والقلب يتّعظ» (١).

وكأنَّ الغزاليَّ رحمه الله بهذا التحليل لقراءة القرآن فرق بين القراءة والتّلاوة.

* * *

(١) السابق / ٢٢٧، ٢٢٨ .

أقسم - حلف

أ - أقْسَمَ:

جاءت فعلاً ماضياً في مواضع مختلفة، من ذلك قوله تعالى:

﴿ أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُم لا ينالُهم اللهُ بِرَحْمة﴾(١). وقوله تعالى:

﴿ وأقْسَمُوا باللهِ جَهْد أَيْمانِهِم﴾(٢).

ووردت فعلاً مضارعاً مبدوءاً بالهمزة في عدة آيات، من ذلك قوله تعالى:

﴿ فلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجوم﴾(٣).

ومبدوءاً بالتاء في موضعين في قوله تعالى:﴿قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعةٌ معروفة﴾(٤)، وفي قوله تعالى:﴿ قَالُوا تقَاسَمُوا باللهِ﴾(٥).

ومبدوءاً باليـاء في ثلاثـة مواضـع: في قولـه تعـالى:﴿ فَيُقْسِمان بـاللهِ إن ارْتَبْتُم﴾(٦)، وفي قوله تعالى:﴿ فَيُقْسِمان باللهِ لشَهادَتُنا﴾(٧).

ووردت اسماً في موضعـين: في قولـه تعـالى:﴿ وإنـه لقَسَـمٌ لـو تَعْلمـون عظيم﴾(٨) ، وقوله تعالى:﴿ هل في ذلك قَسَمٌ لذي حجْر﴾(٩).

---

(١) الأعراف: ٤٩ .

(٢) النور: ٥٣ .

(٣) الواقعة: ٧٥ .

(٤) النور: ٥٣ .

(٥) النمل: ٤٩ .

(٦) المائدة: ١٠٦ .

(٧) المائدة : ١٠٧ .

(٨) الواقعة :٧٦ .

(٩) الفجر: ٥ .

من الوجهة اللغوية:

يقال: قد أَقْسَم بالله، واستقسمه به، وقاسمه: حلف له، والمصدر: المُقْسَم مثل: «المُخْرج» والجمع: أقسام . وأقسمت: حلفت.

وأصل القسم من «القَسَامة» والقَسَامة: الذين يحلفون على حقّهم ويأخذونه.

قال ابن سيده: والقَسَامة: الجماعة يُقْسِمون على الشيء أو يُشْهدون. ويقال: قتل فلانٌ فلاناً بالقَسَامة أي باليمين، وأصل القسامة اليمين. والمُقْسَم: القسَم، والمُقْسِم: الحالف(١).

ب - حلف:

وردت فعلاً ماضياً مرّة واحدة فقط في قوله تعالى:﴿**ذلك كَفّارَةُ أيْمانِكُم إذا حَلَفْتُم**﴾(٢).

وجاءت فعلاً مضارعاً مؤكّداً بالنّون، ومبدوءاً بالياء في قوله تعالى:﴿ **وَلَيَحْلِفُنّ إنْ أَرَدْنا إلاّ الحُسْنى** ﴾(٣)، وفعلاً مضارعاً غير مؤكد بالنون ومبدوءاً بالياء في عشرة مواضع.

وجاءت اسماً مشتقاً على صيغة فعّال من صيغ المبالغة في قوله تعالى:

﴿**ولاتُطِع كُلَّ حَلاّفٍ مهينٍ**﴾(٤).

من الوجهة اللغوية:

الحِلْف، والحَلِف: القسم: لغتان.

والفعل: حلَفَ يَحْلِف حَلْفاً وحَلِفاً، وحِلْفاً، ومَحْلوفاً وهو أحد ما جاء من المصادر على مفعول مثل المجلود والمعقول والمعسور والميسور.

واسم المرّة منه: حَلْفة، قال امرؤ القيس:

حَلفتُ لها بالله حَلْفة فاجرٍ لناموا فما إنْ من حديث ولا صالي(٥)

---

(١) اللسان: قسم .

(٢) المائدة: ٨٩ .

(٣) التوبة : ١٠٧ .

(٤) القلم: ١٠ .

(٥)ديوان امرئ القيس/٣٢، من شواهد الخزانة٤/١، والهمع والدرر رقم٤٢٧.

ويقولون:يَحْلِف بالله محلوفة أي قَسماً، وهو مصدر.

ورجل حالِف، وحلاّف، وحلاّفة: كثير الحَلِف.

وتعريف الحَلِف هو: العقْد بالعزْم والنيّة، فخالف بين اللفظين تأكيداً لعقده، وإعلاماً أنّ لغو اليمين لا ينعقد تحته(١).

بالمقارنة بين المادّتين من الوجهة اللّغوية نجد أنهما مترادفان فالقسم هو الحلف، أو بعبارة أدقّ: أقسم بمعنى حلف، والعكس. لكن لو دققنا النظر في استعمالهما القرآني نجد الفروق التالية:

أولاً: من حيث العدد فمادة أقسم تكرّرت في القرآن الكريم أكثر من مادة حلف.

ثانياً: مادة أقسم مرتبطة بالمقسم به وهو لفظ الجلالة في أكثر الآيات، ومادة حلف مرتبطة أيضاً بالمقسم به وهو لفظ الجلالة ولكن أقل عدداً من مادة أقسم من حيث الارتباط.

ثالثاً: الفعل: أقسم سبق بـ (لا) النافية في عدة آيات على حين لم ترتبط مادة حلف بـ (لا) في موضع واحد من المواضع التي وردت فيها.

رابعاً: القسم بالظواهر الكونيّة مرتبط بـ (أقسم) وليس لمادّة (حلف) نصيب من هذا الارتباط ، فـ (أقسم) وردت مع مواقع النّجوم في قوله تعالى:﴿فلا أُقْسِم بمواقع النّجوم﴾(٢).

ووردت مع يوم القيامة في قوله تعالى:﴿ لا أُقْسِم بيوم القيامة﴾(٣).

ووردت مع الشفق في قوله تعالى:﴿ فلا أقسم بالشّفق﴾(٤).

ووردت مع مكة في قوله تعالى:﴿ لا أُقْسِم بهذا البلد﴾(٥)، وغير ذلك.

---

(١) اللسان : حلف .

(٢) الواقعة: ٧٥ .

(٣) القيامة: ١ .

(٤) الانشقاق: ١٦ .

(٥) البلد: ١ .

ووجود (لا) النّافية مع الفعل (أقسم) المتعلق بالظواهر الكونية يثير مشكلة لغوية، ففي كتاب (إعراب القرآن) المنسوب للزجاج مانصه: «فأما قوله تعالى:﴿لا أقسم﴾، فقيل: (لا) زائدة وقيل:(لا) رد لكلامهم:﴿لا يَبْعثُ اللهُ مَنْ يموت﴾(١) ، فقيل: لا ليس الأمر كما تظنّون»(٢). وفي قوله تعالى:﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾: اختلف المفسرون اختلافاً كبيراً في وجود (لا) مع أقسم.

فأبو حيان اختار أنها لام القسم أشبعت فتولّدت منها ألف نظير ما في قوله:

* أعوذ بالله من العِقراب *

وهو يريد العقرب.

ويؤيد ما اختاره أبو حيّان قراءة الحسن وعيسى: (فلأُقْسِم) وهو مبني على ما ذهب إليه أبو حيّان تبعاً لبعض النحويين من أن فِعْل الحال يجوزالقسم عليه، فيقال: (والله ليخرج زيد) وحينئذ لا يصح أن يُقْرن الفعل بالنّون المؤكدة، لأنها تخلصه للاستقبال،وهو خلاف المراد.

ويرى ابن عُصفور والبصريون أن فعل الحال كما هنا لا يجوز أن يقسم عليه ومتى أُريد من الفعل الاستقبال لزمت فيه النّون المؤكّدة، فقيل: لأُقْسِمن وحذفها ضعيف جدّاً.

ومن هنا خرّجوا قراءة الحسن وعيسى على أن اللام لام الابتداء، والمبتدأ محذوف، لأنها لا تدخل على الفعل، والتّقدير: فلا أنا أُقْسِمُ.

ويرى سعيد بن جُبَير وبعض النحاة أن (لا) نفيٌ و ردٌّ لما يقوله الكفار في القرآن من أنه سِحْر وشعر وكهانة، كأنه قيل: فلا صحة لما يقولون فيه، ثم استؤنف، فقيل: (أقسم) إلخ.

وقال بعضهم: إن (لا) كثيراً ما يؤتى بها قبل القسم على نحو الاستفتاح مثل: لا وأبيك.

وقال أبو مسلم وجمع: إن الكلام على ظاهره المتبادر منه. والمعنى: لا أقسم إذ

---

(١) النحل: ٣٨ .

(٢) إعراب القرآن الكريم المنسوب للزجاج ١٣٣/١ .

الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، أي لا يحتاج إلى قسَمٍ ما فضلاً عن هذا القسَم العظيم(١).

والقسم بمخلوقات الله من خالقها الأعظم يثير مشكلة دينيّة إلى جانب المشكلة اللغوية التي ذكرتها آنفاً.

وتتمثل هذه المشكلة الدينيّة في أننا نرى بعض الأقسام في القرآن الكريم بمخلوقات الله تعالى، فهل هذا القسم معناه: تعظيم هذه المخلوقات وتقديسها، لأنها من صنع الله، والقسم بها خاص بالله تعالى وحده وليس للمخلوق أن يهبها هذا التعظيم، ويجلّها هذا الإجلال، فيمتنع عليه أن يقسم بها خوفاً من الشرك، وصيانة من الكفر، أو معناه أنّ هذه المخلوقات المقسم بها لا يراد به التعظيم، وإنما يراد به الاستدلال على عظمة خالقها، وجلال مبدعها، وقدرة موجدها.

تلك قضية كانت مثار جدل بين العلماء، فمنهم من مال إلى الرأي الأوّل وهو أن الله تعالى أقسم بها لأنها من صنعه، وصنعه مباركٌ مقدسٌ، ومنهم من مال إلى الرأي الثاني، وهو أن القسم ليس مراداً به التعظيم وإنما المراد به الاستدلال.

والرأي الذي أميل إليه هو الرأي الثاني، فإنّ هذه المخلوقات جاء القسم بها للعبرة والعظة والفكر والتّدبّر، قال الله تعالى:﴿ **إنّ في خَلْق السّموات والأرْض واخْتلافِ اللّيل والنّهار والفُلْك الّتي تَجْري في البحر بما يَنْفَعُ النّاسَ وما أَنْزَل الله منَ السّماء من ماءٍ فأحْيا به الأَرضَ بَعْدَ مَوتها وبثّ فيها من كُلّ دابّة وتَصْريف الرّياح والسّحاب المُسخَر بين السّماء والأرْض لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلُون**﴾(٢).

فالله تعالى في هذه الآية وغيرها يذكر آياته ويحتج بها للعظة والعِبْرَة.

ويذكر صاحب «رسالة الإمعان في أقسام القرآن»، الأدلة على سلامة الرأي الثاني بقوله: ثم نرى هذه الآيات أشهد بها القرآن على أسلوب القسم فأشهد

(١) تفسير الألوسي ١٥٢/٢٧ .
(٢) البقرة / ١٦٤ .

بالسّماء والأرض، والشّمس والقمر، واللّيل والنّهار والإنسان والوالد والولد، والذكر والأنثى، والشفع والوتر، فكونها آيات دالّة له نظير، ولا سبيل إلى إرادة تعظيمها» .

«والعاقل لا يتوهم أن الله تعالى يضع مخلوقاته موضع المعبود المقدّس لا سيّما الذي ليس له كبيرُ تقدس كالخيل العادية، والريح الذارية.

وقد صرّح القرآن الكريم بكون هاتيك المقسم بها من السّماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها مسخّرة مذلّلة طائعة، ففي نفس القسم بها دلالةٌ على أنّ المُراد محضُ الإشهاد بها».

«وما ترى من تعميم المقسم به على طريق تعميم الآيات الدالة كما قال تعالى:﴿فلا أُقسم بما تُبْصِرون وما لا تُبْصِرون﴾(١) ، فلم يترك شيئاً إلاّ وقد أَقْسم به.

كما قال:﴿وإنْ من شيء إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾(٢).

ويشمل هذا التّعميم اسْتعْمال المتقابلين حيث أقسم بالليل والنهار والأرض والسماء فكيف يُظن أن الله عظّم كل شيء ؟

والسبيل إلى جعله آية دالة ظاهر، فلا يصار إلاّ إليه.

ويذكر صاحب (رسالة الإمعان): «أن المقسم به يتبعه في بعض المواضع القرآنية ما يدُلُّ كون المقسم به دليلاً للعقلاء ففي قوله تعالى:﴿فلا أُقْسِم بِمَواقِعِ النُّجوم﴾(٣)، نبه على أن هذا القسم عظيم جداً عند ذوي العقول والألباب حينما أتبع ذلك القسم بقوله تعالى:﴿وإنّه لقسمٌ لو تعلمون عظيم﴾، ومن قوله تعالى:﴿فلا أُقْسِم بالخُنّس الجَوارِ الكُنّسِ﴾(٤)، وقوله تعالى:﴿ولا أُقْسِم بالنّفْس اللّوامة﴾(٥) دليل واضح على أن المراد بالقسم هو الاستدلال على عظمة الله وليس

(١) الحاقّة: ٣٨ .

(٢) الإسراء: ٤٤ .

(٣) الواقعة: ٧٥ .

(٤) التكوير: ١٥ ـ ١٦.

(٥) القيامة: ٢ .

وليس القصد تعظيم هذه الظواهر فالعظمة بعظمة القسم وليس بعظمة المُقْسَم به»[1].

وينبني على هذا الذي قدمت أن الذي ذكرته الدكتورة عائشة عبد الرحمن(بنت الشاطئ) في بحثها: «من أسرار العربية في البيان القرآني» : أن القسم يراد به العظمة واليمين الصادقة، وأن الحلف مقصور على اليمين الكاذبة[2] لا نسلم به بعد أن وضح لنا أن معظم الآيات التي وردت في القرآن الكريم بلفظ القسم وما اشتق منه لا يراد به التعظيم إلا إذا اقترن بلفظ المقسم به وهو الله جل جلاله ، كما عرفنا أن القسم قد يراد به الاستدلال والبرهان على عظمة الخالق، وليس على عظمة المخلوق في مجال الآيات التي وردت، وذكر فيها القسم بما خلق الله.

وخلاصة ما سبق أن القسم والحلف مترادفان كلاهما يجري في مجرى واحد، وهو تأكيد المقسم عليه، ومع هذا الترادف فإنه من خلال الآيات التي عرضناها نستطيع أن نقول: اختلف استعمالهما نظراً لاختلاف المقامات،وما يتطلبه السياق، والكلمة القرآنية لها مكانها في تركيب الكلام، بحيث لو انتزعت من مكانها ووضعت في بناء تركيب آخر لما أدت المعنى الذي تؤديه وهي في مكانها، إنه كلام الله الذي سما في بيانه، وارتفع في معانيه ووصل إلى ما فوق القمة من اختيار الألفاظ، وتناسق الكلمات ووضعها في قالبها البلاغي.

* * *

(١) ما بين قوسين مقتبس من كتاب: الإمعان في أقسام القرآن / ٤٩ - ٥٣ / بتصرف .
(٢) انظر ص / ٢٨ .